

نظرات في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم

وصيته صلى الله عليه وسلم بأهل مصر

جمال عبد الرحمن

إعداد

مَذْكُرَ، وَمَنْ قَرَأَ مِصْرَ بَغَيْرِ أَلْفٍ أَرَادَ مِصْرَ بَعِيْنَهَا، كَمَا قَالَ: «ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ» وَلَمْ يُصِرْفَ لِأَنَّهُ اسْمُ الْمَدِينَةِ فَهُوَ مَذْكُورٌ سَمِّيَ بِهِ مُؤَنَّثٌ [تاج العروس للزبيدي المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ / ١٤ / ١٢٦].

أصل كلمة الأقباط وماذا تعني

في الصَّحاح: القِنْطُ: أَهْلُ مِصْرَ، وَاجْتَلَفَ فِي نَسَبِ الْقِنْطِ فَقِيلَ: هُوَ الْقِنْطُ بْنُ حَامَ بْنِ نُوحَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَفِي الْمَقْدَمَةِ الْفَاضِلِيَّةِ لِابْنِ الْجَوَانِي النَّسَابَةِ، عِنْدَ ذِكْرِ نَسَبِ الْقِبْطِ مَا نَصَّه: وَذَكَرَ أَبُو هَاشِمٍ أَحْمَدُ بْنُ جَعْفَرٍ الْعَبَّاسِيُّ الصَّالِحِيُّ النَّسَابَةَ قِنْطُ مِصْرَ فِي كِتَابِهِ فَقَالَ: هُمْ وَلَدُ قِنْطُ بْنُ مِصْرَ بْنِ قُوطَ بْنِ حَامَ بْنِ نُوحَ، وَأَنَّ مِصْرَ هَذَا هُوَ الَّذِي سَمَّيْتُ مِصْرَ بِاسْمِهِ. وَذَكَرَ شَيْخُ التَّوَارِيخِ وَغَيْرُهُمْ أَنَّ الَّذِي سَمَّيْتُ مِصْرَ بِهِ هُوَ مِصْرُ بْنُ بَيْصَرَ بْنِ حَامَ بْنِ نُوحَ، وَهُوَ أَبُو قَيْطِيمِ بْنِ مِصْرَ، وَإِلَيْهِ يُنْسَبُ الْقِبْطُ. وَإِلَيْهِمْ تُنْسَبُ الثِّيَابُ الْقِبْطِيَّةُ. [تاج العروس ٢٠ / ٥].

قال ابن خلدون: ثم غلب الروم على مصر والشام وأبقوا القبط في ملكها وصرفوه في الولاية بمصر إلى أن جاء الله بالإسلام، وصاحب القبط بمصر والإسكندرية المقوقس، واسمه جريج بن مينا فيما نقله السهيلي. فأرسل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطب بن أبي بلتعة، وجبرا مولى أبي رهم الغفاري، فقارب الإسلام وأهدى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هديته المعروفة ذكرها، فيها البغلة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركبها وتسمى ذئب، والحمار الذي يسمى يعفور، ومارية القبطية أم ولده إبراهيم وأُمُّها وأختها سيرين وهبها رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت، فولدت له عبد الرحمن، وقدح من قوارير كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرب فيه، وعسل استظرفه له من بنها إحدى قرى مصر معروفة بالعسل الطيب. ويقال إن هرقل لما بلغه شأن هذه الهدية اتهمه بالميل إلى الإسلام فعزله عن رئاسة القبط. [تاريخ ابن خلدون ٢ / ٨٨].

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى في هَلَاكِ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ: لَمَّا تَمَادَى قِنْطُ مِصْرَ عَلَى كُفْرِهِمْ وَعَتَوْهُمْ

الحمد لله الذي فاوت بين العباد، وفضل بعض خلقه على بعض حتى في الأمكنة والبلاد، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفصح من نطق بالصاد، وعلى آله وصحبه السادة الأمجاد وبعد...

فإن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم لم يرحل عن هذه الدنيا حتى استودع الناس وصية من أعظم الوصايا، وبشرهم ببشرى تسعد لها القلوب وتبرق الثنايا؛ فقال لهم: «إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يذكر فيها القبراط، فاستوصوا بأهلها خيراً، فإن لهم ذمة ورحماً؛ فإذا رأيتم رجلين يقتتلان على موضع لبنة، فاحرج منها». فمر أبو ذر بريعة وعبد الرحمن بن شريحيل بن حسنة وهما يتنازعا في موضع لبنة، فخرج منها. [رواه مسلم]. وحقا تحققت بشراه، وصدقت نبوعته، وفتحت مصر المحروسة.

مصر في اللغة وأصل تسميتها بذلك

أصل كلمة مصر من الفعل مَصَرَ الشاةَ والناقةَ يَمَصُّهَا مِصْرًا وَيَمَصُّرُهَا: حَلَبَهَا بِأَطْرَافِ الْأَصَابِعِ الثَّلَاثِ، وَقِيلَ: هُوَ أَنْ تَأْخُذَ الضَّرْعَ بِكَفِّكَ وَتُصَيِّرَ إِبْهَامَكَ فَوْقَ أَصَابِعِكَ، وَقِيلَ: هُوَ الْحَلْبُ بِالْإِبْهَامِ وَالسَّابِغَةِ فَقَطْ. [لسان العرب ٥ / ١٧٥].

قال الزبيدي: قال الحافظ أبو الخطاب بن دحية: مصر أخصب بلاد الله، وسماها الله تعالى بمِصْرَ وَهِيَ هَذِهِ دُونُ غَيْرِهَا، وَمَنْ أَسْمَاهُهَا أَمَّ الْبِلَادَ، وَالْأَرْضَ الْمُبَارَكَةَ، وَغَوَّثَ الْعِبَادَ، وَأَمَّ خُنُورَ، وَنَفْسِيرَهُ: النِّعْمَةَ الْكَثِيرَةَ، وَذَلِكَ لِمَا فِيهَا مِنَ الْخَيْرَاتِ الَّتِي لَا تُوْجَدُ فِي غَيْرِهَا، وَسَاكِنُهَا لَا يَخْلُو مِنْ خَيْرٍ يَدِرُّ عَلَيْهِ فِيهَا، فَكَانَهَا الْبَقْرَةَ الْحَلُوبَ النَّافِعَةَ.

وقال: سَمَّيْتُ ذَلِكَ لِمَصْرُهَا أَيْ تَمَدُّنُهَا، أَوْ لِأَنَّهُ بَنَاهَا الْمِصْرُ بْنُ نُوحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَسَمَّيْتُ بِهِ، ... وَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو الْخَطَّابِ بْنِ دِحْيَةَ.

وهي تصرف وقد لا تصرف، وتؤنث. وقد تُذكر، عن ابن السراج. قال سيبويه: في قوله تعالى: «**امْطُروا مِصْرًا**» قال أبو إسحاق: الأكثر في القراءة إثبات الألف، قال: وفيه وجهان جائزان، يراد بها مِصْرُ مِنَ الْأَمْصَارِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا فِي تِيهِ، قَالَ وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ مِصْرَ بَعِيْنَهَا، فَجَعَلَ مِصْرًا اسْمًا لِلْبِلَدِ، فَصُرِفَ لِأَنَّهُ

من الولاة والخلفاء والملوك والسلاطين؛ من فتحوا أبوابهم للوافدين، واستمعوا إلى الشعراء والمادحين، وأجازوا على التأليف والتصنيف، وقاموا في بناء الحضارة الإسلامية بأوفى نصيب.

بل إن مصر كانت -وما زالت- حامية الملة والدين، وراعية الإسلام والمسلمين، وقاهرة الغزاة والمعتدين؛ مما جعلها أعز مكان في الوطن العربي الكبير.

فكان من حق هذا الإقليم أن يشغل مكانه في التاريخ، وأن يُخص بعناية العلماء والمؤرخين، وأن تُفرد لوصف ملامحه المؤلفات، وأن يُتدارس تاريخه في كل مكان وزمان.

فضل مصر

قال أبو عمرو الكندي: فضل الله مصر على سائر البلدان، كما فضل بعض الناس على بعض، والأيام والليالي بعضها على بعض، والفضل على ضريين: في دين أو دنيا، أو فيهما جميعاً، وقد فضل الله مصر وشهد لها في كتابه بالكرم وعظم المنزلة وذكرها باسمها وخصها دون غيرها، وكرر ذكرها، وأبان فضلها في آيات من القرآن العظيم، تنبئ عن مصر وأحوالها، وأحوال الأنبياء بها، والأمم الخالية والملوك الماضية، والآيات البينات، يشهد لها بذلك القرآن، وكفى به شهيداً، ومع ذلك روي عن النبي صلى الله عليه وسلم في مصر وفي عجمها خاصة وذكره لقربته ورحمهم ومباركته عليهم وعلى بلدهم وحثه على برهم ما لم يُرو عنه في قوم من العجم غيرهم. [فضائل مصر المحروسة ص: ١]

ذكر مصر في القرآن الكريم:

ذُكرت مصر في القرآن في أكثر من ثلاثين موضعاً. منها خمسة مواضع باسم مصر تصريحاً: قال الله تعالى: «أَهْطَأْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ فِيهَا مَآسَاكُتًا» [البقرة: ٦١]، وقرئ: «أَهْطَأُوا مِصْرًا» بلا تنوين، فعلى هذا هي مصر المعروفة قطعاً، وعلى قراءة التنوين، يحمل ذلك على الصرف اعتباراً بالمكان؛ كما هو المقرر في العربية في جميع أسماء البلاد، وأنها تذكر وتؤنث، وتصرف وتمنع. وقد أخرج ابن جرير في تفسيره عن أبي العالية في قوله: «أَهْطَأُوا مِصْرًا» قال: يعني مصر فرعون.

وقال تعالى: «وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكَ مِصْرَ يَبُوتَا» [يونس: ٨٧].

وقال تعالى: «وَكُلَّ الَّذِي أَشْرَبْتَهُ مِنْ مِصْرَ لَا تَرَأَيْتَهُ أَكْثَرِي مَثْرَبَةً» [يوسف: ٢١]. وقال تعالى حكاية عن يوسف عليه الصلاة والسلام: «أَدْخَلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ

وَعَنَادِهِمْ، مُتَابِعَةً لِّلْكَهْمِ فِرْعَوْنَ، وَمُخَالَفَةً لِّنَبِيِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَكَلِيمِهِ مُوسَىٰ بْنِ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَقَامَ اللَّهُ عَلَىٰ أَهْلِ مِصْرَ الْحَجَّ الْعَظِيمَةَ الْقَاهِرَةَ، وَأَرَاهُمْ مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ مَا بَهَّرَ الْأَبْصَارَ وَخَيَّرَ الْعُقُولَ..... حتى آمن منهم؛ قبل ثلاثة وهم امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، والرَّجُلُ النَّاصِحُ، الَّذِي جَاءَ يَسْعَىٰ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ فَقَالَ: «يَمُوسَىٰ إِنَّكَ أَمْسَلُ بِأَتَمِرُونَ بِكَ لِقَتْلُكَ فَخَرَجَ إِلَيَّ مِنَ النَّصِيحِينَ» [القصص: ٢٠] قاله ابن عباس فيما رواه ابن أبي خاتم عنه ومُزَادُهُ غَيْرُ السَّحَرَةِ فَإِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْقِبْطِ، وَقِيلَ بِلِ أَمِنْ طَائِفَةٍ مِنَ الْقِبْطِ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ وَالسَّحَرَةِ كُلِّهِمْ وَجَمِيعُ شُعْبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَيَدُلُّ عَلَىٰ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: «فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَكَلٌّ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ لِلْمُتَشْرِفِينَ [يونس: ٨٣] فَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ «إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ» عَائِدٌ عَلَىٰ فِرْعَوْنَ لِأَنَّ السَّبَاقَ يَدُلُّ عَلَيْهِ. [البداية والنهاية ط إحياء التراث ١/ ٣١١].

مما سبق يتبين أن الأقباط هم أهل مصر أجمعين أيًا كانت توجهاتهم، وقبل دخول الإسلام إلى مصر كانت كلمة «قبط» تدل على أهل مصر دون أن يكون للمعتقد الديني أثر على ذلك، إلا أنه بسبب كون المسيحية كانت الديانة السائدة بين المصريين وقت دخول العرب المسلمين مصر، وتميُّز الفاتحين ومن أسلم من الأقباط باسم المسلمين، فانحصرت كلمة قبطي منذ ذلك الحين لتشير للمسيحيين في مصر.

ويعتبر دخول العرب مصر سنة ٢٠ من الهجرة على يد الصحابي الجليل عمرو بن العاص مولد تاريخ جديد لهذه البلاد، ذات الماضي البعيد، فلم يكد يتم الفتح، وتستقر الأحوال بها بعد الوقائع الحربية المعروفة، حتى أخذ سكانها يدخلون في دين الله أفواجاً، وتشرح صدورهم للقرآن الكريم، وتصطنع ألسنتهم اللسان العربي المبين؛ وتصبح العربية لغة الدواوين. ثم يرحل إليها أعيان الصحابة وجل التابعين، ويهوي نحوها الفقهاء والقراء وحفاظ الحديث ورواة اللغة والأدب والشعر، وتبنى فيها المساجد؛ لإقامة شعائر العبادات. ومدرسة علوم الدين، وللفضل في ساحتها بين الناس، كما أُنشئت فيها المدارس لتلقي العلوم والمعارف، وألحقت به خزان الكتب؛ لجذب العلماء من شتى الجهات؛ مما ارتفع به شأن العلم، وازدهرت الفنون والآداب. وتولى مقاليد الحكم فيها على مر العصور

«أَمِين» [يوسف: ٩٩].

وقال تعالى حكاية عن فرعون: «أَلَيْسَ لِي مَلِكٌ وَصَرُّ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي» [الزخرف: ٥١].

وأما ذكره سبحانه وتعالى لها كناية وإشارة فكما في قوله تعالى: «إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا» [الأعراف: ١٢٣]. فالمدينة هنا هي مصر.

وقال تعالى: «وَقَالَ يَسُوףُ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا» [يوسف: ٣٠]. والمدينة هنا مصر.

وقال تعالى: «وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا» [القصص: ١٥]. وهي مصر.

ومثله قوله تعالى: «فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ» [القصص: ١٨].

وقال تعالى: «وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى» [القصص: ٢٠]، أخرج ابن أبي حاتم في تفسيره عن السدي أن المدينة في هذه الآية منف، وكان فرعون بها.

كما أشير إليها بلفظ الأرض كما قال تعالى حكاية عن يوسف عليه الصلاة والسلام: «قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ» [يوسف: ٥٥]، أخرج ابن جرير، عن ابن زيد في الآية، قال: كان لفرعون خزائن كثيرة بارض مصر، فاسلمها لسلطانه إليه.

وقال تعالى: «وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ» [يوسف: ٥٦]، أخرج ابن جرير، عن السدي في الآية قال: استعمله الملك على مصر، وكان صاحب أمرها.

وقال تعالى في أول السورة: «وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ» [يوسف: ٢١].

وقال تعالى: «فَلَنْ أُنَبِّئَكَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِيَ أَوْ» [يوسف: ٨٠]، قال ابن جرير: أي لن أفارق الأرض التي أنا بها - وهي مصر - حتى ياذن لي أبي بالخروج منها.

وقال تعالى: «إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ» [القصص: ٤].

وقال تعالى: «وَرِيدٌ أَنْ مَنَعَ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَهُمْ أَيْمَةً وَجَعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ» [القصص: ٥].

وقال تعالى: «إِنْ تُرِيدُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ» [القصص: ١٩].

وقال تعالى: «لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ»

[غافر: ٢٩].

وقال تعالى: «أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ» [غافر: ٢٦].

وقال تعالى: «أَنذَرْتُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ» [الأعراف: ١٢٧]، إلى قوله:

«إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ» [الأعراف: ١٢٨]، إلى قوله: «قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ» [الأعراف: ١٢٩].

المراد بالأرض في هذه الآيات كلها مصر.

وقال تعالى: «وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا أَلَيْ بَرَكْنَا فِيهَا» [الأعراف: ١٣٧]؛ قال الليث بن سعد: هي مصر؛

بارك فيها بالنيل. حكاه أبو حيان في تفسيره.

وقال القرطبي في هذه الآية: الظاهر أنهم ورثوا أرض القبط. وقيل: هي أرض الشام ومصر؛ قاله ابن إسحاق وقتادة وغيرهما.

وقال تعالى في سورتي الأعراف والشعراء: «يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ» [الأعراف: ١١٠].

وقال تعالى: «فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ» [الشعراء: ٥٧-٥٨].

وقال تعالى: «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ» [الدخان: ٢٥-٢٦]؛ قال الكندي: لا يعلم بلد في اقطار الأرض أثنى الله عليه في القرآن بمثل هذا الثناء، ولا وصفه بمثل هذا الوصف، ولا شهد له بالكرم غير مصر.

وقال تعالى: «وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبْوَءَ صَدِيقٍ» [يونس: ٩٣]، أورده ابن زولاقي. وقال القرطبي في تفسيره: أي منزل صدق محمود مختار - يعني مصر. وقال الضحاك: هي مصر والشام.

وقال تعالى: «هَمَّكُمُ جَنَّتُمْ بَرْنَوَةَ» [البقرة: ٢٦٥]، أورده ابن زولاقي وقال: الربا لا تكون إلا بمصر.

قال تعالى: «أَأَنْتُمْ يَرَوْنَ أَنَا نَسُوفُ الْمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ» [السجدة: ٢٧]. قال قوم: هي مصر، وقواه ابن كثير في تفسيره.

وقال تعالى: «وَقَدَرْنَا فِيهَا أَقْوَاتًا» [فصلت: ١٠]، قال عكرمة: منها القراطيس التي بمصر.

وقال تعالى: «إِذْ دَابَّتِ السَّحَابُ» [الأنعام: ٧]، التي لم يَخْلَقْ مِثْلَهَا فِي أَلْبَدِ» [الفجر: ٧-٨]. قال محمد بن كعب القرظي: هي الإسكندرية.

[حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ١/ ١٨ للسيوطي].

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.